السفر إلى المغرب.. قصة عاطفية

السفر فكرة ينتشى لها العقل المرهق من كثرة البحث عن لحظة سلام ضائع دون جدوى. وفى السفر لذة يهتز لها الجسد ويطرب، وبها تسعد الروح وترق وتصفو. السفر، كلمة سحرية تنفتح لها خزائن المعرفة والدهشة والأخبار والأسرار، وتتكسر عند قدميها قيود وأغلال تحول دون العقل وما يريد والقلب وما يهوى. السفر قصة عاطفية تبحث عن مسافر عاطفى روحه عطشى لمعانقة كل ما تصادفه من جديد فى طبائع البشر وغرائب البلدان وجمال المنظر الطبيعى. السفر قصة حب، مكانها مخيلة المسافر، وزمانها حر طليق، وأبطالها الطبيعة والبلدان والإنسان.

لقد تمكن حب السفر والترحال من قلب المغربى «ابن بطوطة» إمام الرحالة العرب والمسلمين، وسرى فى كيانه مسرى الدم فى العروق، حتى إن رحلته الأولى استغرقت أكثر من أربع وعشرين سنة، بدأها وهو فى شرخ الشباب فى الثانية والعشرين من عمره، وأنهاها عائداً إلى مسقط رأسه وهو على أبواب الشيخوخة وقد قارب الخمسين من عمره. فهل تمكن حب السفر والترحال منى أنا أيضاً وسرى فى كيانى مسرى الدم فى العروق؟ أكاد أجزم أن حب السفر والترحال قد تمكن من قلبى وعقلى وروحى، وإلا ما كنت أترك ابنى الصغير «عمر» إلى

رحلة سفر بعد أخرى. وأرجئ عمل أى شىء إلى ما بعد العودة من الرحلة والسفر.

ربما لم يكن الكاتب الصحفى الأستاذ «صلاح عطية» أمين عام اتحاد الكتاب الصحفيين العرب على علم بقدر الشوق الذى أحمله فى قلبى إلى رؤية دولة المغرب العربية الشقيقة وإلى زيارتها، عندما حادثنى هاتفياً ليبلغنى دعوته لحضور مؤتمر اتحادات الكتاب السياحيين العرب والمتوسطى والعالمى فى مدينة مراكش المغربية. فهل خاننى صوتى وكشفت نبراته ما بداخلى برغم محاولتى ضبط مشاعر الفرح التى داهمتنى وأنا أشكر له دعوته مؤكداً على قبولها؟

المغرب.. أحببته فى شخص فتاة مرحة مغربية اسمها «ثريا». دخلت «ثريا» قلبى من اللحظة التى وقعت فيها عيناى على وجهها الصبوح الضاحك داخل قاعة تسجيل أسماء الطلبة والطالبات الجدد فى اليوم الأول لدراسة الدبلوم فى الترجمة بمعهد البوليتيكنيك التابع لجامعة لندن فى نهار خريفى من عام ١٩٧٩.

لا أعرف كيف أمكننى التغلب على خجلى وحذرى، أنا القادم من صعيد مصر، الذى حذرنا دائماً من بنات القاهرة الجميلات اللاتى يتحدثن اللهجة القاهرية الناعمة. ولدهشتى كانت «ثريا» المغربية تحدثنى باللهجة القاهرية الناعمة ذاتها وقد اكتسبتها من مشاهدة الأفلام السينمائية المصرية فى دور السينما بالدار البيضاء. كانت «ثريا» تضحك ضحكة طفولية عذبة تضئ بها سماء لندن ذات الغيوم،

وتغنـــى لى أغنيات «أم كلثوم» فيذهب عنى برد المدينة الكبيرة ويشـيع فى جوانحى الدفء.

يقـترب موعد إقلاع طائـرة الخطوط الملكية المغربية التى ستحلق بنـا فى اتجـاه المغرب العربى، لكن الوقت يمضـى دون أن يدق جرس هاتف المنزل أو يصدر هاتفى المحمول نغمة فأضغط على مفتاح استقبال المكالمة التى تطمئننى على حصولي على تأشيرة الدخول إلى دولة المغرب الشقيقة وعلى مقعد قد تأكد حجزه على الطائرة.

بعد ظهر اليوم السـابق لليوم المحدد للسـفر، يأتينى صوت الزميل الصحفـى «محمد صلاح عطية» عبر هاتفى المحمول بطلب محدد وقاطع مفاده أن أسـرع بالذهاب إلى منزلى لكى أحضر جواز سفرى وأتوجه به علـى الفور إلى القنصل المغربى الـذى ينتظرنى فى مكتبه لكى يمنحنى تأشـيرة دخول المملكة المغربية. شعرتٍ بالحيرة وسألت: كيف وجواز سـفرى فى حوزتـك أنت؟ قال موضحـا: جواز السـفر الذى معيٍ ليس جواز سـفرك وإنما هو جواز سفر زوجتك. أدركت خطأى، فبدلاً من أن أسلمهم جواز سفرى اختلط على الأمر وسلمتهم جواز سفر زوجتى.

الجو ممطر والسيارات قابعة فى مكانها فى شوارع القاهرة والجيزة الزلقة ولا تكاد تتحرك إلا ببطء شديد، وأنا داخل سيارة التاكسى أتلقى مكالمات على هاتفى المحمول من «محمد صلاح عطية» يسـتعجلنى فيها من أجل ألا أتأخر على القنصل الذى ينتظرنى بمكتبه برغم انتهاء فترة عملـه بالقنصلية. مع مضى الوقت المهـدور، ومع غروب شمس النهار

المطـير وتكاثف الغيـوم الرمادية فى سماء القاهـرة والجيزة واقتراب حلول الظلام، يداهمنى شـعور وأنا بداخل سـيارة التاكسـى بأن قوة غامضـة خفية تحاول منعى من السـفر وأنا أحاول التغلب عليها، لكن سـيارة التاكسى لا تكاد تتحرك والمسـافة بين المهندسين والهرم تزداد بعداً بفعل تعطل حركة المرور، ولا يمكننى عمل شىء.

وصلت إلى المنزل الساعة السـابعة مساء، وسارعت إلى إخراج جواز سفرى من داخل حقيبة الأوراق والمستندات، لكن صوتاً مثبطاً للهمة ظل يتردد فى داخلى: لـن ينتظرنى القنصل حتى هذا الوقت المتأخر، ولن أحصل على التأشـيرة، وسـتقلع الطائرة فى الصباح بدونى، ولن يكون هناك سفر أو رحلة.

أسـكت الصـوت المثبط للهمـة، وسـارعت على رغم حلول المسـاء بإيقاف سـيارة تاكسـى لتقلنى إلى مقر القنصلية بحى الزمالك. وهناك وجدت أبواب السفارة موصدة ونوافذها غير مضاءة. طلبت رقم الهاتف المحمول الخاص بالسـيد القنصل وعرفته بنفسـى فأجابنى باقتضاب: إنه قادم من منزله خلال دقائق.

وقفت أنتظر على مسـافة بعيدة من باب القنصلية الموصد، ولم يمض وقت طويل حتى تبينت وجود السـيد القنصـل عند المدخل، فتوجهت إليه وأنا أقدم له اعتذارى الشديد، فحدثنى غاضباً من تأخرى، إلا أننى بذلـت ما وسـعنى الجهد لكي أطيـب خاطره وأنا أرافقـه إلى مكتبه. وخلال الدقائق التى اسـتغرقتها كتابة طلب استخراج تأشيرة الدخول

كان غضب السيد القنصل «محمد الأشهب» قد ذهب، وحل محله خلق حسن وابتسامة كريمة مرحبةً بى فى بلده المغرب. شكرته وألقيت عليه السلام مودعاً، وخرجت من باب القنصلية غير مصدق أننى حصلت على التأشيرة قبل ساعات قليلة فقط من موعد إقلاع الطائرة.

فى عجلة من أمرى بدأت أرتب حقيبة السفر وبعض أوراقى وأنا أستشعر ذات الفرح الذى بداخلى عند كل مرة أكون فيها على سفر، لكن شيئاً رائعاً مشرقاً فى صدرى أقرب إلى الحنين الحزين يبلل قلبى ويرطبه ويجعله أكثر وداعة ورقة.

أنظر إلى الصغير «عمر» الذى يمازحنى بأننى مسافر إلى «العصر» وليس إلى «المغرب»، وأسأل السؤال نفسه الذى طرحه «سقراط» منذ زمن بعيد: هل الفعل الذى يتم لك به أن تكون محبوباً يسبق حالة كونك محبوباً؟.. وبناء على ذلك يكون العزيز لدى الآخرين عزيزاً لأنهم أحبوه أولاً؟.

أكاد أتبين فى وجه زوجتى شيئاً أقل من الاتهام وأكثر قليلاً من العتاب، وهو أننى نشأت وكبرت فى كنف أم البلاد مصر، فلماذا أنا إذن أبدو وكأن أم البلاد لا توافقنى فأسافر إلى حيث أشاء وأحب من أرض الله الواسعة؟.

أتوقف عن ترتيب حاجياتى محاولاً إخفاء دمعة لم أنجح فى كتمانها، وأنا أتذكر كلمات الشاعر الراحل «كمال عبد الحليم» بعد صدور ثلاثة كتب لى عن رحلاتى إلى أمريكا والسويد ولبنان: سافر إلى الداخل، إلى

أم البلاد مصر، واكتب عن ناسها ومدنها، عندئذ ستحبها كثيراً جداً كما أحبها «حسن فؤاد»، و «فؤاد حداد»، و «نجيب محفوظ».

إلى المغرب العربى فى الشمال الأفريقى أسافر من مصر. مسافر أنا إلى الشمال الأفريقى الذى تضرب عروبته فى أعماق التاريخ بخصوصية واضحة وتميز معروف. فى الدقائق السابقة على إقلاعى من منزلى متوجهاً إلى مطار القاهرة الدولى، أقرأ للكاتب القومى الدكتور مصطفى الفقى، الذى يقول: «إن الشخصية الإسلامية العربية لدول المغرب أثرت تأثيراً فاعلاً فى طبيعة الوجود العربى، وأن دولة المغرب تعتبر خط الدفاع الأول عن العروبة والإسلام أمام أوروبا، فضلاً عن الذكريات الدفينة لسقوط الدولة الإسلامية فى الأندلس وخروج العرب منها، ولولا صمود دولة المغرب لانتكست عروبة تلك المنطقة وربما غاب الإسلام عنها أيضاً».

أتابع قراءة الكاتب القومى الدكتور مصطفى الفقى: «إن عناية الحكم فى الرباط بالثقافة العربية والتراث الإسلامى وعلوم الدين الحنيف كان لها أثرها فى تأكيد الهوية العربية الإسلامية لتلك الدولة التى تقع فى أقصى بقعة من المغرب العربى، والتى لا تبتعد عن حدود أوروبا بأكثر من بضعة كيلو مترات، وهو أمر يحمد للأسرة العلوية الحاكمة هناك، بل إن ذلك نهج تاريخى مغربى حرص عليه المرابطون والأدارسة والموحدون وغيرهم ممن حكموا فى تاريخ السلطة المغربية. وهنا لابد من أن نشير إلى أن الإسلام فى شمال أفريقيا لا يبدو ديناً

فقط ولكنه يتحول إلى قومية أيضاً. ولعل ذلك هو الذى منع الخلاف بين العرب والبربر عبر مراحل التاريخ المختلفة فى هذه المنطقة التى تجعل من الإسلام ديناً وقومية، تمثل لهما الحضارة العربية الخلفية الأساسية عبر كل العصور.

فى الطريق إلى المطار، وأنا فى سيارة التاكسى التى يقودها الجار الصديق «أحمد حسن»، أفكر فيما ينتظرنى من جديد ومثير ومدهش، ومن معرفة بالآخر تكشف عن أشياء لم نتعرف عليها من قبل فى أنفسنا، ومن بهجة ارتياد الآفاق المجهولة ومصادفة الاكتشاف.

فى صالة السفر، أتبادل التحية مع الخبير السياحى محمود عبد الوهاب وزوجته وابنتهما الرقيقة منى، والزملاء الصحفيين باهى حمزة، وعبد الناصر أحمد، وشريف صلاح الدين. وفى قاعة المغادرة التى لا يفصلها عن الطائرة التى ستحملنا إلى المغرب سوى حاجز زجاجى، أتطلع إلى الوجوه المسافرة معنا على نفس الطائرة، خاصة وجوه مواطنى ومواطنات المغرب. أكاد أرى وجه «ثريا» فتاة الدار البيضاء المرحة الضاحكة أبداً فى وجه فتاة مغربية جميلة وحيدة ترتدى نظارة سوداء.